الفصل السادس

التربية وعدم الاستمرار أو الانقطاع

إن أكثر الظواهر التى تلفت النظر فى عملية اكتساب الثقافة فى المجتمعات الصناعية المعاصرة هو الفصل التام بين الشخصية البالغة والشخصية غير البالغة . إذ تفرق تلك المجتمعات بشتى الطرق بين السلوك والقيم التى تلائم الأطفال عن الاتجاهات والمسلك الذى تنتظره من البالغين الكبار . ويواجه كل شاب فى هذه المجتمعات عدم استمرار رئيسى وفجائى خلال عملية النمو . إذ يجب أن يتحول خلال المراهقة بقليل من الإعداد من الطرق التى وضعت للأطفال إلى الطرق التى تناسب البالغ . ويعانى الكثير من فترة المراهقة بسبب التغير الجسمانى والنفسى المضطربين بالإضافة إلى العبء المضاف المتمثل فى التحول من إحدى طرق الحياة إلى الأخرى مما يؤدى لإجهاد شديد ولمدة طويلة .

ولا تسبب جميع المجتمعات مثل هذا الانشقاق فى عملية النمو . ففى كثير من المجتمعات البدائية مثل الساموا ، والأرابش ، والهوبى يجرى مسار اكتساب الثقافة ليناً ومستمراً بما يسمح للطفل للبلوغ تدريجياً دون إجهاد مفاجىء أو قاس . إذ بدلا من مفاجأته بمتطلبات البلوغ فانهم يمرون به من خلال مراحل مختلفة لكل منها دور ملائم لها . ويتخذ الكالينجا فى الفلبين حوالى عشر مراحل فى هذا الصدد وهى : الميلاد ، وبداية الابتسام ، والزحف ، والحبو ، والجاوس منفرداً ، والوقوف ، والسير ، والجرى ، وإرساله فى مهمات ، وإرساله للغابة لإحضار الوقود ، وأخيراً يصبح رفيقاً . ويعنى ذلك أنه قد بلغ سن الرشد ويمكن أن يحارب ويغازل ويتزوج

ويقيم له منزلا (١) . وأكثر من ذلك أنه فى بعض الاستثناءات تتجه هذه المراحل إلى ألا تكون محددة تحديداً قاطعا (٢) .

ويحث الوالدين أطفالهم فى الولايات المتحدة على التنافس الأكاديمى والاجتماعى مع الأطفال الآخرين من ذات العمر بعكس ما يحدث فى بعض المجتمعات البدائية حيث يسمح للطفل لكى يبلغ وفقاً لمقدرته ويترك مثلا للوصول إلى مرحلة البلوغ عندما يكون مستعداً لها مع عدم ربط ذلك بالضرورة بعمر معينة (٣) . حقاً إن هناك مجتمعات بدائية كثيرة تتبع أسلوباً غالباً ما يؤلم عند إدخال الطفل مرحلة البلوغ لكن المصيبة غالباً ما يعد لها مسبقاً ومتعمداً وتحت الرقابة التامة لكى يعاد توعية المراهق لينتقل من طريق فى الحياة إلى الآخر بينما محنة المراهق الحديث تصيبه بالاضطراب بدلا من أن تمهد لتوعيته .

الانقطاع فى الثقـــافة الأميريكية :

إن الانقطاع المحير الذى يعانيه الطفل الأمريكى يقع بين أسرته والعالم الواسع، وقد تنفصل فى قليل عن الثقافات أو لا تنفصل الأسرة تماماً عن الأقارب والمجتمع . وتبدو الأسرة الأمريكية وقد ناءت بحمل المسئولية حيث تفتقر لمساندة كبار الأقارب والحكمة الاجتماعية مما جعلها منعزلة انعزالا فريداً من نوعه . زد على ذلك أننا فى المجتمع الذى نما بثبات تنافسى وغير شخصى ينظر إلى الزواج كحصن للأمان والود . وينجب الوالدان اليوم أبناءهما كثمرة للحب وليس من أجل الاستثمار المالى كما كان الحال فى الماضى . لقد كان الطفل مرتبطاً بالتزامات نحو والديه فى الماضى أما الآن فان الوالدين يحسان بالتزامهما بالتضحية من أجل أطفالها (٤) . ويعيش الطفل حتى يحين ذهابه للمدرسة فى داخل هذه الأسرة كلية . ولا يقابل من البالغين كقاعدة سوى بعض الأقارب والأمهات (ونادراً الآباء) ورفاق

اللعب ممن يزورهم . وهكذا تتشكل آماله عن كبار السن منذ بداية حياته الأولى بفضل والديه والكبار (٥) .

ونجد الأمر على عكس ذلك فى الأسرة الممتدة فى أغلب المجتمعات البدائية حيث يختلط الطفل مع الناس من جميع الأعمار والخبرات . وفى كثير من هذه المجتمعات يربى البالغين أطفالهم معاً حتى ينتمى جميع الأطفال بذلك إلى جميع المنازل . فاذا احتاج الطفل إلى صناعة لعبة أو شربة ماء فقد يلجأ للمنزل أو لأجداده أو مجموعة كبيرة من العمات والأعمام . وإذا ما أخطأ التصرف يتولى أى بالغ تقويمه (٦) ولا تعرض له المدرسة (إن كان ملتحقاً بها) أو البالغون أى أنشطة لا يعلم عنها شيئاً لأنه قد تعرف فعلا بمن يمارسونها . ولأن أسرته تشارك أكثر بكثير من الأسرة الأمريكية فى حياة المجتمع (فى أنشطة مثل : الزراعة ، والعبادة ، والاحتفال بالأعياد ، والدفن ، والحصاد) لذلك يصادف مبكراً أناساً مختلفين فى الأعمال والمنزلة ممن يفرزهم مجتمعه (٧) .

بل أكثر من ذلك أن تربية الطفل الأمريكى خلال السنوات السابقة لالتحاقه بالمدرسة تتم غالباً على أيدى شخص واحد ألا وهو أمه . وغالباً ما تقوم بنفسها بتهذيبه وثوابه وحبه . ولما كان أبوه بعيداً عنه أغلب يومه فان الأب يصبح أقل واقعية وأثراً بالنسبة له . وليس لدى أطفال المدارس سوى أفكار غامضة حول مهنة آبائهم وإن كانوا يقرون بأن الأب يمد الأسرة بأسباب المعيشة والأمن والمركز الاجتماعى (٨) . وبذلك فلا مفر من مواجهة الطفل للمصاعب فى محاولة تكييف نفسه لبقية الناس لأنه اعتمد فى سنواته الخمس الأولى بشكل هائل على أمه . وأكثر من ذلك إذا ما كان للأب دور هام فى المنزل فان صلات الطفل الاجتماعية تستمر وإن كانت محدودة نسبياً بسبب استمرار حصره لمدة طويلة فى عالم أسرته الضيق (٩) .

ومن ناحية أخرى نجد أن الطفل فى كثير من المجتمعات البدائية يربى

على أيدى كثير من الأقارب ، وفى جميع المجتمعات البدائية أيضا أخذت العناية بالطفل أغلب الوقت من مهام كبار العائلة (١٠) .

كما تنفصل فى أمريكا المعاصرة الطفولة عن البلوغ انفصالا شديداً حيث لا يتولى الطفل أية مسئولية اجتماعية أو اقتصادية (١١) كما أن اللعب وبخاصة عند أطفال المدن لا يهيئه لمهنة ما . وأكثر من ذلك ، إن الانتقال من المجتمع الزراعى إلى الصناعى جعل التنافس الاجتماعى على الفور أكثر ضرورة وإن كان ذلك من الأمور التى يشق على الطفل تحقيقها بسبب طول فترة التعليم وتزايد تجريداته فى الوقت الذى تتزايد فيه الطبيعة العظيمة التعقيد للعمل ذاته مما يبعده كثيراً عن عمليات اكتساب الناس لمعاشهم . ويستثنى من ذلك ما نجده بين أحط الجماعات دخولا حيث يمثل دخل الطفل كصبى الجرائد أو جامع كرات الجولف إما دخلا هامشياً للأسرة أو أن يدخل جيبه وربما يدفع له والداه حقيقة كى يؤدى أعمالا صغيرة كان يؤديها كواجب وبذلك فانه لا يسهم بشىء له مغزاه للمجتمع فى مجال العمل . حقاً إنه محروم من العمل وقتاً كاملا ولكن ما إن يصل إلى سن البلوغ فانه يتوقع منه أن ينافس على قدم المساواة بقية البالغين .

ولا ينفصل العمل عن اللعب فى كثير من المجتمعات البدائية حيث تتضمنهما نفس الأنشطة . فعندما يولد الهندى من قبيلة الشيين يعطى سهماً وقوساً صغيرين وكلما تقدم به السن حصل على نماذج أكبر منهما .. وما أن يعود إلى المنزل بأول طائر اصطاده حتى تعد الأسرة احتفالا حتى لو كان صيد أبيه هذا اليوم صيداً عظيماً . وينمو لدى الأطفال فى مثل هذا المجتمع على وجه السرعة إحساس بالمسئولية لمشاركتهم الأسرة الواجبات منذ صغر سنهم . ويملك الأطفال عند قبيلة « نافاهو » منذ سن الخامسة فما فوق ماشية يعتنون بها حتى يوفروا للأسرة اللحم لطعامها ، وفى المناسبات وفى الاحتفالات (١٢) . وفى ساموا يعتنى البنات ممن لا يكبرون عن سن السادسة

بالصغار ، وعندما لا يعملن كحاضنات يعملن فى المزارع والمساعدة على حمل الطعام إلى القرية . كما يتعلم صغار الصبية أيضاً العناصر البسيطة للتجديف والصيد المائى ، وكلما ازداد عمر الأطفال واشتد عودهم فانهم يمارسون واجبات تحتاج لمهارة أكبر ، إلا أنهم ينمون بعكس الطفل الأمريكى باضطلاعهم التدريجى بالمسئوليات منذ البداية (١٣) .

أما الطفل الأمريكى بعكس الطفل البدائى فانه فى سن السادسة أو أقل قد يعتنى بطفل صغير بينما لا يسمح للأول حتى سن الثانية عشرة تقريباً بأن يراعى طفلا أصغر منه (١٤) . ويشعر أغلب الوالدين أن الطفل الذى يقل عمره عن الثانية عشرة سيكون غير مسئول وسيجد هذا الواجب ثقيلا جداً كما يخشون أيضاً انتقاد الجيران الذين لا يقبلون فكرة جلساء الأطفال من بين صغار السن .

كما ينتظر من الطفل الأمريكى أن يكون خاضعاً لسيطرة البالغين .. وهكذا يقع المراهق بين عادة الخضوع للبالغين وحاجته لتأكيد ذاته حتى يتصرف هو كبالغ أيضاً (١٥) كما يصبح الصراع حاداً بوجه خاص لدى الزوجين الشابين المحتم تكوينهما أسرة لهما بعد ترك منزل والديهما مباشرة . أما الفتاة فقد اعتادت على أن يعتنى بها الولد ووالداها كذلك ثم يتحتم قيامها فجأة بالمسئولية لرعاية صحة ورفاهية الزوج والأطفال ، كما يتحتم على الصبى الذى اعتاد على الاهتمام بنفسه أن يعتنى الآن باحتياجات منزل بأكمله .

ويسمح من ناحية أخرى فى بعض المجتمعات البدائية للطفل بقدر أكبر من تأكيد الذات ، ولهذا ينمو بحيث يكتسب نفس سيطرة البالغين (١٦) ففى ساموا نجد أن تأثير الوالدين محدود ، أما التهذيب فواجب كبار السن كما قد تسيطر الفتاة ذات الست أو السبع سنوات كحاضنة على من يصغرونها من الفتيات الأصغر سناً . ومن هنا تحتاج خطوة خطوة إلى الشخصية المسيطرة المنتظرة من البالغين . وكما فى ساموا لو تشاجر شاب مع والديه كما قد يحدث

فى مجتمعنا فانه ينتقل دون خزى إلى منزل أو قرية عمه . كما يعامل النافاهو الأطفال والبالغين معاملة واحدة ، متساوية . إذ لا ينهى الطفل عند النافاهو عن وضع يده على السكين الحاد أو أن يبقى بعيداً عن النار ولكن يسمح له أن يتعلم من أخطائه كما لا يجبر على الذهاب للمدرسة أو المستشفى بل يترك ليفكر فيما ينفعه . ومن أمثلة ذلك تلك الحادثة التى تعبر عن احترام النافاهو لاستقلال الطفل الذاتى ، ففى سؤال لأحدعلماء الإنسان لامرأة من النافاهو ، كان مما قررته أن رضيعاً يستطيع الكلام . ولما رأت الدهشة على وجهه مما قالته عن الأصوات الصادرة عن الرضيع اعترفت أنها لا تفهم ما يقول ولكنها تعتبر الرضيع يتكلم حقيقة (١٧) .

وأخيراً هناك انقطاع فى ثقافتنا بين حرية البالغ فى تصريف بواعثه وبين ضبط النفس المنتظر من الطفل . فيسمح للبالغ أن يدخن ويشرب الخمر ويقص قصصاً ممنوعة ويمارس النكاح بينما لا يسمح بذلك للأطفال . إن ثقافتنا قاسية بوجه خاص بالنسبة لكبت الشباب جنسياً . إننا نعلم الطفل أن الجنس خطأ وبينما نعلمه فى سن المراهقة حقائق التكاثر فاننا نحظر عليه ممارسة ما تعلمه . إذ يخفى حمل المرأة ، ويغطى الصدر عند الرضاعة وكثير من البنات يأتيهن الحيض لأول مرة دون أن يعلمن ماهيته . وتنال العذرية والعفة من التبجيل ، ثم يفترض فى المرأة الذكاء والاستجابة الجنسية ليلة الزفاف وفى الرجل المهارة بحيث يسكن من روعها .

كما لا تفصل جميع الثقافات بين الطفل والبالغ فصلا تاماً إذ يتمتع الأطفال بين قبائل البيلاجا الهندية فى الأرجنتين بالنكاح ويستمعون ويقصون قصصاً جنسية ويدخنون التبغ إذا توفر لهم ذلك كما يشربون قليلا من الخمر ولا يرجع ذلك لأن شرب الخمر غير أخلاقى ولكن للاحتفاظ به لاستعمال كبار الرجال (١٨) ويعتبر الجنس فى ساموا أمراً طبيعياً وممتعاً . كما قد يمارس الشاب الساموائى بحرية مختلف الأمور الجنسية سوى الزنا فهو

محظور . حقاً إن الفتاة الساموائية غالباً ما تؤجل الزواج من أجل إطالة الحرية الجنسية للمراهقة . أما الانحرافات الجنسية فقد أدت فى هذا البلد إلى الأمراض العصبية بسبب الوصمة الخلقية والاجتماعية التى تميزه أما فى « ساموا » فلا يوجد مثل هذه الوصمة إطلاقاً .

إننى لا أقول بضرورة السماح لأطفالنا بالتدخين وشرب الخمر وأن يكونوا فوضويين فانى لم أقصد شيئاً من هذا مطلقاً . إذ تتطلب ثقافتنا مستوى سلوكيا أكثر حرية مما نجده عند البيلاجا أو فى ساموا ويتطلب ذلك اكتساباً سلوكياً للبالغ الكفء بسرعة وسهولة قليلتين . ومن حقنا أن نعلم أطفالنا أن يضبطوا دوافعهم التى تسمح للبالغين بالتعبير عنها إذ ينقص الأطفال الخبرة فى تقدير عواقب التعبير العاطفي . ومن ناحية أخرى لا توجد حدود مقدسة دقيقة نضعها أمام سلوك أطفالنا . إذ يدرك الطفل باستمرار أن والديه يعبران عن دوافعهما وهو ما يجب أن يكبحه وإدراكه هو لا يفرض عليه ضبط النفس فقط ولكن يقوده إلى الخداع والإحساس بالذنب . ويحتاج الأمر للمناقشة فى القدر الضرورى من هذا الكبت وكذلك القدر المناسب حقاً والقدر الممكن تجنبه منه ولا مجال للشك فى أن ثقافتنا التى تتميز بتزايد المتعة تمنح لأطفالها قدراً متزايداً من الحرية العاطفية وينجح الوالدان والمدرسون لو أنهم تعلموا أن يسايروا بفاعلية أكثر تلك النتائج الحتمية (١٩) .

المراهق العصرى :

لو فرضنا عدم وجود هذا الانقطاع وأن الشاب العصرى يعيش كما هو فى ثقافة معقدة سريعة التغير فانه سيستمر تحت سيطرة تأزم أعظم وأكثر من الشباب فى المجتمعات البدائية لأن لديه الكثير والكثير من الاختيارات المعقدة ، ومن هنا يخاطر بالاختيار الخاطىء . و يتضاعف القلق عند اتخاذ القرارات ولا يرجع ذلك إلى وجود معايير خلقية واجتماعية متصارعة

فحسب ولكن كذلك لإيماننا بأهمية الاختيار ومسئولية الفرد عن نتائج سلوكه (٢٠) ومن مصادر الضغوط الأخرى ما نجده حقيقة فى بلوغ الأطفال جسمانياً بأسرع مما ينتظرون مما يؤدى إلى اتباعهم أنشطة معينة مثل « تكوين صداقات مع الجنس الآخر » أو التصرف الجاد وليس لديهم الاستعداد الكافى نفسياً لهذه الأمور .

إن التقليد المبكر لسلوك البالغين مع التزايد المستمر لفترة التربية يؤدى لإطالة فترة المراهقة الاجتماعية ويخلق ثقافة فرعية جماهيرية للمراهقة تتميز بالالتزام بجماعة الرفقاء والعداء أو عدم الاكتراث للقيم الوالدية . وتحتفظ تلك الثقافة المتمركزة فى المدرسة الثانوية وهى ثقافة منفصلة يعتمد أعضاؤها كل على الآخر للتأييد النفسى والجزاء الاجتماعى وعلى علاقات قليلة تربطها بمجتمع البالغين خارجها (٢١) ويفضل الصبيان الشخص الرياضى ، وصاحب السيارة والصبى الذى ينحدر من عائلة كبيرة بينما تفضل الفتيات الشخص ذا الشخصية والسلوك والمظهر أو الملابس الأنيقة ولا يهتم كلا الجنسين بالنجاح الأكاديمى إلا بأقل مما قد لا يود المدرسون مجرد التفكير فيه .

ويحس المراهق فى تلك الثقافة الفرعية أنه بعيداً عن عالم أبويه وإن كان جزء كبير منه قد خلقه له البالغون من المعلنين ، وأصحاب المصانع ، ومن يهيمنون على وسائل الاتصال الجماهيرية . ويتزايد ما قد يكون لديه من إحساس نحو والديه بعوامل هامة معينة أخرى سأذكر منها القليل .

أولا : إن سرعة التغير الاجتماعى والثقافى تفوق معرفة واتجاهات الوالدين أكثر مما كان معتاداً . ولقد أصبح المراهق العصرى مدركاً إدراكاً متزايداً أن معايير والديه موقوتة بزمنهم لأن وسائل الاتصال الجماهيرية تقدم له يومياً آخر نماذج من سلوك المراهقين مستخدمة أساليبها الخفية ولغتها الرخيصة .

ثانياً : لقد أسهم التخصص الاقتصادى فى اغتراب الأب عن الابن وجزء من السبب يرجع إلى حاجة الابن لاتباع حياة أبيه العملية ، والجزء الأخير يرجع إلى أنه لو فرض واتبع هذا الطريق فان المعرفة والمهارات التى يتحتم عليه تعلمها قد تكون مفقودة إلى الحد الذى لا يتيح لأبيه الميل أو الوقت ليعلمها له .

ثالثاً : ضعف الترابط العائلى لأن المراهق لا يسهم بشىء رئيسى فى اقتصاد الأسرة ولأن الأسرة نادراً ما تعلمه أى معرفة أو مهارات نوعية ملائمة لأداء دور فى مجتمع البالغين ، ويتعرض المراهق أخيراً فى مجتمع جمعى سريع التغير للقيم المتصارعة بين مجموعة القيم الدينية والدنيوية والخبرة التى تحدد تحديداً ما قد يكون قد اقتنع به من معتقدات عندما كان صبياً .

ولإحساسه أن قيم الكبار غير ضرورية لعالمه يحتمى بطمأنة رفاقه . ولا يتم ذلك استقلاله الحقيقى ولكن بمجرد تغيير البيئة التى يلتزم بظروفها .

التربية والانقطاع الذى تدفع اليه الثقافة

ما هو الاتجاه الذى يتحتم على التربوى أن يتخذه فى ظروف التفكك الذى تحدثه الثقافة فى تطور التلميذ العاطفى والفكرى ؟ فلنبحث فى موضوع تدريب الشخصية وتدريب الفكر .

الانقطاع وتدريب الشخصية :

يعتبر أغلب علماء الإنسان ، الذين يؤمنون ، كما يفعلون ، فى المرونة الإنسانية وعمق التكيف الثقافى ، إن مشكلات المراهقة هى نتيجة للضغوط الثقافية بينما يرجع المحللون النفسيون السبب الأساسى فى هذه المشكلات إلى أسباب بيولوجية ، ولهذا يميل أغلب علماء الإنسان لأن يكونوا أكثر

تفاؤلا بخصوص متاعب المراهقة التى يرون إمكان تفاديها إذا ما أمكن تحوير النماذج الثقافية التى أدت لحدوثها . كما يحذرون التربوى عن القبول السهل للفكرة التأملية أن المشاكل المعاصرة مثل مشكلات المراهق العصرى إنما هى قدر حتمى للإنسانية جميعها (٢٢) .

ويبدو هذا الرأى فى أوائل كتابات (مزجريت ميد) بصورة متطرفة حيث تقول بأن الضغوط والمتاعب المرتبطـــة بالنمو لا تتسبب إلا عن طريق متطلبات الثقافة وليس لها أى أساس بيولوجى على الإطلاق . وقد كتبت تقول : « فى أى نقطة يقرر المجتمع تأكيد تكيف معين . سيكون التكيف فى هذا تكيفاً حاداً بالنسبة للفرد (٢٣) » وتعطى مثالا من تنوع الاتجاهات فى طرق معالجة موضوع الطمث فى مجموعة من الثقافات ومنها ساموا حيث لا توجد لديهم مشكلة فى هذا المجال على الإطلاق . إلا أنها فى وقت حديث جداً سلمت بوجود بعض الأسس الرئيسية فى التطور الإنسانى يجب أن تتفق عليها كل الثقافات (٢٤) .

وتتضمن آراء (ميد) و (بندكت) عن التفكك المتسبب عن الثقافة أن الطفل يجب أن يعامل فى المنزل وفى المدرسة أيضاً ، حيث ، كما يقال أن اعتماد الطفولة على البالغين يستطيل مدته عن عمد حتى يسهل التهذيب ، ويتحتم معاملة الطفل كبالغ كفء يكتسب السلوك والقيم المشابهة لما ينتظر منه عند البلوغ . وأكثر من ذلك كله ألا يتعلم شيئاً سيهجره عند بلوغه . فكيف يتم ذلك ؟

وتسرع (ميد) برفض العودة لأسلوب الحياة الأكثر بدائية وتناصر المزيد من الحرية للشباب (وعلى وجه الخصوص المراهق) ليختار دون النظر لما تنتظره له أسرته أو زملاؤه أو مجتمعه حتى يحقق تماماً كل ما لديه من مواهب . وتقول لو أننا وضعنا أساساً لممارسة التربية لفهم نمو الطفل نفسيا وجسمانياً ومعرفة نماذج الثقافة فسوف يتمكن من السماح لتنمية هائلة

للفروق الفردية . وبهذه الطريقة نسهم فى نمو الثقافة ذاتها (٢٥) . وتساند هنا بوضوح فكرة أن الطريق الوحيد لكى تؤثر المدرسة فى الحركة العامة للثقافة هو جعل هدف التربية خلق الشخصية المرنة .

وتدعو (ميد) إلى أسرة أكثر مرونة لأن المدرسة لا تستطيع إلا أن تكمل ما بدأته الأسرة . وتقول إن الأسرة الأمريكية بعلاقاتها القوية والودية تتدخل كثيراً فى نمو الشاب وتمنعه من أن يستغل قدراته على أحسن وجه . وتقول وتلك هى كلماتها أنه « من المرغوب فيه أن نخفف ، إلى أقل حد ممكن ، الدور القوى الذى يلعبه الوالدان فى حياة أطفالهم وبهذا نمنع أحد العوامل الهامة القوية فى اختيارات أى حياة فردية »(٢٦) وتقول إن أفضل طريقة لبناء شخصية حسنة التكيف أن يكون لدينا أسرة متسامحة يختلف أفرادها دون تأزم عاطفى (٢٧) .

المذهب التقدمى :

وتتقارب آراء (ميد) ، و (بندكت) فى مشكلة الانقطاع من آراء التربية التقدمية . إنها تناصر التقدمية فى دعوتها المدرسة لتتحمل مسئولية تدريب الشخصية الذى تدعى عجز المدرسة عن أدائه وهو فى الحقيقة مزيد من التنشئة المتحررة للطفل ، لأن المدرسة الأمريكية الحديثةغير متسلطة وأكثر انفصالا عن الطفل من والديه فستكون أقل قدرة على تشكيل شخصيته فى أى اتجاه مرسوم . كما تعارض التقدمية التفكك بين خضوع الطفولة وسيطرة البالغين لأنها تناصر ضرورة ممارسة الأطفال منذ بداية حياتهم قدراً متزايداً من الحرية والمسئولية . وتقول إن دور المدرسة ليس الأمر بل التعاون مع التلاميذ بشكل كبير لأنهم يحسون بحاجتهم إليه .

وبالرغم من معارضة المذهب التقدمى لهذا التفكك فهل ينكر التربوى التقدمى مبدأه فى ضرورة معاملة الطفل وفقاً لاحتياجات ورغبات عصره ؟

ويجيبنا بالنفى القاطع ، بل يتحتم منح التلميذ مزيدا من حرية التعبير والحركة والسلوك ولو كان ذلك بسبب عدم انتظار إظهاره الثبات وتوجيه الذات الذى ننتظره من البالغ وهى جميعاً ثمرة تجربة كثيرة . فلو تناولنا الآن بهذه الطريقة الطبيعية الطفولية للتلميذ بدلا من فرض التهذيب عليه وهو ما ننتظره من البالغ فاننا بذلك نجعل نموه أكثر استمراراً لأننا لا نتطلب منه التحول الفجائى من التمرد على توجيه الآخرين له إلى توجيه نفسه كشخص بالغ . كما يرى التربوى التقدمى ضرورة دراسة الطفل ما يهمه . ولا ما يعتقد المدرس أنه ضرورى تعلمه له وهذا ترتيب يعطى الطفل مزيداً من الحرية والمسئولية ومن ثم لا يبعده كثيراً عن ظروف البالغ .

كذلك يود التربوى التقدمى جعل المدرسة مسئولة لتكييف الطفل اجتماعياً بتعليمه على سبيل المثال كيفية التصرف مع الجنس الآخر . ويحتمل جداً أن المدرسة التقدمية تود وصول الطفل إلى مرحلة البلوغ الاجتماعى أكثر مما يود والداه وهى حالة قد تيسر انتقاله للبلوغ بتعويده لمدة طويلة على بعض أنماط سلوك البالغين .

كما يبحث المذهب التقدمى فى تخفيف الانقطاع بين الأسرة الأم والعالم العريض ، وكذلك بين مسئولية البالغ وعدم مسئولية الطفل . ومن وجهة النظر التقدمية . لم يعد ممكنا للأسرة إدخال الطفل فى عالم البالغين . ويجب أن تصبح تلك مسئولية المدرسة . ويعبر عن ذلك جون ل . « تشيلدر » بقوله إن المدرسة يمكنها وحدها إعطاء الطفل تعريفاً مباشراً (بالتجربة الأولى) لظروف الحياة المعاصرة وهو أمر ضرورى لتكوين الشخصية البالغة (٢٨) .

والآن اذكر ثلاث طرق يمكن وفقاً للمذهب التقدمى أن تربط بها المدرسة الشباب والمجتمع الكبير معاً . يجب بادىء ذى بدء أن يدرس التلميذ المشاكل (الواقعية) لمجتمعه مثل البطالة والجريمة والتجديد الحضارى وليس

ذلك فى صورة أكاديمية ولكن كمشاكل حيوية تؤثر على البيئة التى يعيش فيها . ولهذا السبب يجب أن تصبح العلوم الاجتماعية العمود الفقرى فى منهج المدرسة .

ثانياً : لو أن هذه المشاكل كانت موضع الدراسة الوافية الفعالة فيجب أن يكون لدى المدرس الوقت والفرصة أن يقرب طلبته من المجتمع ويدرس المشاكل كما هى ويتحدث مع قادة العمال ورجال البوليس ومخططى المدن وآخرين يرتبط عملهم بهم . كما يجب أن يكون قادراً على تطبيق عدد من النظم على هذه المشاكل ومجموعة كبيرة من المعلومات ، ويتطلب ذلك بدوره منهجاً مرناً تماماً أمام المدرس أو مجموعة المدرسين حتى يعمل مع الأطفال لمدد متفاوتة من الزمن ويستخدم أية مواد أو أساليب قد تفرضها المشكلة (٢٩) .

ثالثا : لو أتيح للصغار أن يساهموا مساهمة تامة فى مجتمع البالغين فيجب أن يعرفوا كيفية المساهمة بالاشتراك فى كل نواحى الحياة فى المدرسة . ويعطى المعلمون للأطفال فى الوقت الحاضر عموما وهما بالمشاركة من خلال رياضة المشاهدة وما شابهها بدلا من السماح لهم برأى حقيقى فى إدارة المدرسة . ولما كان الطلبة يريدون فى نفس الوقت أن يبحثوا بأنفسهم عن مزيد من المشاركة المباشرة فى العالم الواسع أكثر مما يسمح به المنهج فانهم يتجهون بدلا من ذلك إلى أنشطة خارج المنهج المدرسى التى تربط كثيراً من الطلبة بصلة فريدة بحياة مجتمع البالغين .

المذهب المحافظ : بالرغم من أن أغلب علماء الإنسان الأمريكيين يودون تفضيل تقليل الانقطاع المتسبب عن الثقافة فى تجربة الشاب فان هناك بعضاً منهم يعتقدون أن التفككات الحادة تخدم هدفاً هاما جداً . إذ يتفقون مع دوركايم فى (أن الطفل يحتاج إلى تهذيب صارم عن طريق آخرين إن كان له أن يتعلم تهذيب ذاته) إلا أن دوركايم لم ينظر لمشكلة الانقطاع هذه

النظرة ولم تكن مقترحاته فى التهذيب مقصودة لمجتمع مرن ومتسامح مثل مجتمعنا ، وقد قال مالينوفسكى حديثاً جدا أن حالة التفكك حالة ضرورية للحرية الفردية . فاذا لم يتعرض الشاب لمختلف الضغوط التى تنتج عنها تفككات فى نموه يحتمل أن توجه ثقافته فى اتجاه واحد . حقاً إن مجرد الصدمة لتفكك معين مقصود فى المجتمعات البدائية توقف اعتماد الفرد على الاتجاهات وأنواع السلوك الموضوعية لحالة حياته السابقة .

وكتب مالينوفسكى يقول :

(... فى أى مرحلة ثقافية تكون فرص الحرية الروحية بمعنى تنوع وجهات النظر والتيارات الأيديولوجية ، معتمدة أولا وقبل كل شىء على وجود عدد من مؤسسات مشتركة مستقلة وهى وإن كانت مرتبطة تتمتع بدرجة معقولة من الاستقلال الذاتى حقا ، إننا نرى فى كثير من الوسائل التربوية البدائية العديدة ذلك الربط بين التنظيم الجديد أو الذى يبدو فى حفلات التدشين حيث تجرى محاولة معينة لتخطى الولاءات والاهتمامات التى اكتسبت فى الحياة الأولى وتقديم قيم جديدة . وهكذا يؤثر كل تنظيم على حدة فى إحداث تأثير روحى ذاتى متحرر على العقل النامى (٣١) .

غير أن مالينوفسكى لا يعالج هنا المشاكل النوعية التى تواجه المراهق العصرى وهى ليست مجرد وقوعه فى مرحلة جديدة من حياته إذ يختلف عن الشاب البدائى الذى يمر خلال احتفالات التعريف المحددة بدقة ، فى أنه لم يعد إعداداً كافياً لهذه المرحلة ولهذا يحس بالضياع عند بلوغها .

وقد طرح البرهان تأييداً للانقطاع فى أن النمو يحتم على المرء إعادة تشكيل اتجاهاته وسلوكه فى ضوء الحديث من التجارب بصفة مستمرة . ويتطلب المجتمع العصرى من أفراده التقدم أبعد مما أتاحت لهم تجاربهم الأولى أكثر مما يتطلب المجتمع البدائى ، ومن هنالك يتحتم حدوث مزيد

من الانقطاع المتسبب عن الثقافة (٣٢) . وقد لا يفلح ذلك البرهان فى دحض الاعتراض فى إمكان تخفيف هذا الانقطاع كلما أمكن ذلك ولكن هذا البرهان يجعل من هذا الانقطاع على الأقل أكثر فهما عما قد يبدو من النظرة الأولى من وجهة نظر وانتقادات (ميد) و (بندكت) ، وأكثر من هذا ينبغى على المرء أن يستمر فى البرهنة على أن تجربة التفكك فى سن المراهقة تساعد نجاح الشخص فى تناول مزيد من الصدمات والحقائق فيما بعد . فقد تكون المراهقة العاصفة مقدمة حقيقية لبلوغ عاقل رصين متوازن .

ويقبل التربويون المحافظون عموماً الانقطاع كأمر حتمى . ويرون أن الأسرة مسئولة عن تعليم الطفل الأخلاق وقواعد السلوك وتهيئة حياته فى مجتمعه معتقدين أن واجب المدرسة الأولى هو التدريب الفكرى . ولما كان أغلب الوالدين يميلون وإن لم يكن كلهم ، إلى أن يكونوا أكثر محافظة من المدرسة على قيمهم فان مثل هذه السياسة تميل إلى زيادة الفجوة بين نوع المعايير والسلوك التى يتعلمها الطفل وتلك التى يواجهها فى النهاية فى عالم البالغين . ويقبل المحافظون هذا الانقطاع على أساس أن تراخى كثير من البالغين فى نواحى الأخلاق لا يبرر الانحطاط بالمعايير التى نعلمها للطفل إلا أن ما يحزنهم أن رأب صدع الانقطاع لن يكون بانحطاط سلوك الأطفال ولكن بتحسين سلوك البالغين الكبار .

كما يرى المحافظون ضرورة تعليم الطفل قيما خلقية ثابتة بدلا من السماح له بتشكيل معاييره . ويصرون على عمومية تلك القيم وأن الطفل فى جميع الأحوال يفتقر إلى التجربة التى تمكنه من إصدار حكم ذاتى سليم فى الأمور الخلقية ، ويعترفون بأن غرس قيم ثابتة يتضمن مزيداً من سيطرة البالغين على الأطفال ومن هنا يتم مزيد من التفكك بين خضوع الطفولة ، والسيطرة المطلوبة من البالغين ، إلا أنهم يبرهنون على كون هذه القيم مرشداً دائماً للسلوك ويجب تعلمها فى المراهقة وفى أى مرحلة من العمر . كما يبرهنون

على أن الطفل يكتسب الاستقلال الفكرى الذى ننتظره من البالغ بدلا من اتباع الاعراف المتغيرة لزملائه وذلك بالتمسك التام ببعض القيم الثابتة .

ويلوم بعض المحافظين بعض المتقدمين لإسهامهم فى الاتجاه النمطى بتعليم الطفل تقليد حياة البالغين قبل أن يتعلم كيفية التفكير المستقل . ولذلك يشب الطفل ويبلغ لا كمفكر مستقل ولكن كعبد للعادات والاتجاهات التى امتصها دون روية . ويعبر عن ذلك توماس مولنار بقوله : « إن نموذجه (التلميذ) فى تكوين صداقات مع الجنس الآخر وفى الشراء والاستثمار واللهو يدرس ثم يدرس له حتى إذا ما وصل إلى العمر المطلوب دخل إلى البلوغ دون أن يدرى ، لا ليس كرجل ذى فكر مستقل ، ولكن كتابع مصنوع (٣٣) .

الانقطاع والنمو الفكرى :

إن أفضل طريقة للتقليل من الانقطاع فى النمو الفكرى أن نعلم الطفل أقل ما يمكن مما لن ينفعه فيما بعد وأفضل طريقة لذلك أن نعلم الطفل كيف وليس ماذا يفعل . ويميل جميع التربويين المعاصرين لقبول هذه الغاية ولكنهم يختلفون فى وسيلة تحقيقها .

المذهب التقدمى : يجب من وجهة النظر التقدمية أن يتعلم الطالب كيفية التفكير ويتم ذلك بشكل رئيسى من خلال الدراسة العلمية للقضايا المعاصرة التى يمر بها على أساس أنها مشاكل أصيلة إلى الحد الذى يمكنه أن يربطها باهتماماته الخاصة ومن غير المهم أن يكتسب معرفة نوعية بالقدر الذى يجب أن يتعلمه فى كيفية استخدام ذكائه بطريقة منهجية فى ظروف الحياة حوله . ولما كان الشخص يفتقر غالباً فى هذا العالم السريع فى تحوله إلى أسس اجتماعية محددة توجه اختياره . لذا يجب أن يتعود التلميذ على استخلاص مبادئه فى أية مادة متاحة أكثر من اعتماده على ما يحصله من معرفة .

كما يسعى التربوى التقدمى لسد الثغرة بين التعليم والحياة . إذ يرى أن الطفل يدرك وبوجه خاص فى المدارس الابتدائية مدلول ما يتعلم أو أنه فهم الناحية التطبيقية له وأصله فى حياته . وتأتى هذه العقيدة من المبدأ التقدمى القائل بأن معنى الفكرة يكمن فى نتائجها الشائعة التى تتضمنها . وهكذا فان معرفة أمر ما يعنى القدرة على التنبؤ بسلوكه أو استجابته فى مواقف معينة (٣٤) . ولا يكفى أن يعرف الطفل مجرد هجاء الكلمات ونطقها أو قراءة الجمل بل أن يقوم أيضاً بالأفعال الملموسة والظروف التى تدل عليها المفاهيم وقد أشار لذلك جون . ل . تشيلدز بقوله : « يجب ألا نثقل على الشباب بجمل خلابة لا تعنى شيئاً .. وكلمات شفهية قد تقتل مداركهم وتضعف قدرتهم الفكرية ويجب أن نمدهم بتجارب تصلهم بمغزى الحياة فيما ينتظر أن يتعلموا من المصـــادر الشفهية والمطبوعة ، ويتضح لنا كلما تقدم العمر بالطفل وتزايدت قدرته على التفكير المجرد قلة اعتماده على التجارب الأولى ، ولكن يتحتم استمرار الصلة القوية بين التدريب الفكرى والحياة ذاتها وخصوصا بالنسبة للتلميذ المتخلف أكاديمياً .

ويعتبر بعض الكتاب فى علم الإنسان المعالجة التقدمية معالجة مناسبة تماماً لمحو التعلم المطلوب من الطفل العصرى . إذ يجب على التلميذ أن يستبدل المعرفة التى اكتسبها من قبل بمعرفة جديدة إن كان له أن يتخطى الطرق الطفولية الفكرية . وتلك قضية تختص بها الثقافة السريعة التغير حيث قد يدرس الطفل الكبير السريع التكيف المعرفة العصرية المكتسبة أى تلك التى لم تدخل إلى عالم الثقافة ، ومن هنا لايمكن تعليمها للطفل الصغير كجزء من التراث . ولا يمكن إضافة مثل هذه المعرفة إلى المعرفة القديمة (إذ أنها تفترض مسبقا فى حالات كثيرة وجهة نظر مختلفة عن الواقع) وإن تطلب الأمر عدم تعلم المعرفة القديمة . ويندرج تحت هذا المفهوم فى الحقيقة المعرفة العلمية على وجه الخصوص التى تتغير بسرعة تزيد عن غيرها من المعارف ولذا تتطلب إعادة تعلم أساسى من جانب الطالب (٣٦) .

وتتفق وجهة النظر هذه مع المبدأ التقدمى القائل بأن التعلم يجب أن يكون (تعاملا) يتساءل فيه المتعلم عن العالم كما لو كان معملا شاسعاً يختبر فيه الفروض كما يمكن للطالب أن يعيد التعلم بطريقة أفضل لو شجع على أن يتعلم بنفسه كيف أن هذه المعرفة الجديدة تحسن إدراكه للعالم وتمكنه من الارتباط بمزيد من الفعالية كما يتفق ذلك مع مبدأ « التعلم عن طريق الممارسة » حيث يثبت للطالب فعالية ما يتعلمه بدلا من اكتساب ذلك بطريق الحفظ عن ظهر قلب واستخدام الملخصات (٣٧) .

المذهب المحافظ : ينكر التربويون المحافظون أن اهتمامات الطفل لا تحمل أية علاقة ضرورية لحياة البالغ أو للنمو الفكرى ، ويعلنون أن المبدأ التقدمى يسعى للربط بين شخصية الطفل وما يتعلمه بجعل اهتمامات الطفل المعيار الرئيسى فى عملية التعلم . إلا أن سياسة ربط ما يتعلمه الطفل وفقاً لميوله غير الناضجة لن تثبطه عن استخدام قواه الفكرية استخداماً تاماً فحسب بل تريد فى الحقيقة الانقطاع بحيث يتم انعزاله عن عالم البالغين .

وقد يرفض المحافظون فى هذا الخصوص الأسلوب التقدمى فى حل المشاكل إذ أن الانقطاع الذى خلقه المجتمع الصناعى العصرى بين معرفة وتجربة الطفل وتلك التى تنتظر من البالغ لا يصلحه مجرد مشاركة الطفل مشاكل الثقافة المعاصرة بل يتحتم على التلميذ إن كان له أن يحل مشاكل ذات طبيعة عامة أن يكتسب أولا عادات التفكير المنظم ويختزن المعرفة عن طريق دراسة للنظم الفكرية الرئيسية . ولا يتحتم عدم تعلم هذه العادات الفكرية لأنها تمثل الطرق التى جربها الناس وطوروها للفهم والتعامل مع بعضهم كمظاهر دائمة فى خبرتهم . كما تمثل أفضل إعداد للتعامل مع أى تفكك تسبب عن الثقافة لأنها تعلم الشخص كيفية التفكير الفعال تحت جميع الظروف .

وقد اقترح « جيروم س . برونر » وهو تربوى ذو ميول لمذهب

الجوهرية ، خطة تتوسط الموقفين التقدمى والمحافظ للإبقاء على الاستمرار فى نمو التلميذ فكرياً (٣٨) . وعلى افتراض أن أى موضوع يمكن تعليمه بفعالية وبأمانة لأى طفل فى أى مرحلة من مراحل تطوره يرى (برونر) أن المدرسة الابتدائية لابد أن تقدم للطفل المفاهيم الأساسية للموضوعات التى سيدرسها فى المدرسة الثانوية . كما يجب أن تقدم له المفاهيم بصورة تجعله يقدرها لأن لدى الطفل فى كل مرحلة من مراحل نموه طريقة مميزة فى التفكير . ويقول برونر أن حدوث ذلك نادرفى الوقت الحاضر ، وعلى سبيل المثال : تقدم للتلميذ فى المدرسة الثانوية (بيرود) نظريات إقليدس الهندسية دون خبرة سابقة فى التشكيل الهندسى البسيط (٢٩) .

ويرى ضرورة تمكين المدرسة الثانوية من تعميق وتنقيح وإضافة وتنظيم المعرفة بحيث تقدم للتلميذ فى صورة مبسطة . ويعطى مثالا على ذلك بتدريس الأدب والعلوم . إذ يمكن أن يتعلم الطفل فى المدرسة الابتدائية بطريقة مفهومة له الأنماط الأدبية العظيمة وموضوعاتها وأشكال المأساة والملهاة وكذلك موضوعات متصلة بالذات والولاء الشخصى . ومن أمثلة ذلك : يمكن تقديم فن المأساة الأدبية خلال بعض الوسائل مثل إعادة سرد الأساطير العظيمة واستخدام كلاسيكيات الأطفال والتقديم والتعليق على الأفلام المختارة التى تثبت قيمتها . ويمكن للتعليم أن يرسى قواعده على هذه الأسس لخلق مزيد من الوضوح والعمق فى فهم أدب المأساة . ويجب فى مجال العلوم أن تقدم للتلميذ فى وقت مبكر كلما أمكن وبطريقة تتسم بالأمانة الفكرية ، وتتفق مع طريقته فى التفكير فى مجال المفاهيم العامة مثل : العدد ، والقياس ، والاحتمالات ، والأفكار الرئيسية فى العلوم العديدة . ويمكن أن يعلم بطريقة أكثر جدية كلما تقدم به العمر تلك الموضوعات التى تعلمها فى بادىء الأمر بالإيحاء وبدون تعمق .

لقد شرحت فى هذا الفصل بعض الانقطاعات التى يرى علماء الإنسان

أن ثقافتنا هى التى خلقتها بين أساليب الأطفال وأساليب البالغين وأن سد هذه الثغرة وهذه التفككات يتسبب عنه فى مرحلة البلوغ تأزماً وجهداً شديداً ، ويسعى التربويون التقدميون بالتخفيف من هذا الضغط إلى تقليل الانقطاع . أما التربويون التقدميون فيؤمنون من ناحية أخرى أن كثيراً من الانقطاعات لا يمكن تجنبه وأن الطفل ينجح فى الإعداد له بتمرين قواه الفكرية .